توحيـــــد العالم

من حمد الباسل باشا

الى رابندرانات تاغور

كان من محاسن الصدف ـ وقد انتوينا زيارة صديقنا الدكتور فريد رفاعى للتحدث اليه فى موضوع الموسوعة ـ أن دعانا عديله الاستاذ محمود سامى ناظر مدرسة الاسماعلية الثانوية بشبرا إلى حفلة شاى أقامها للاستاذ أمين لطفى بك سكرتير عام وزارة المعارف سابقا ـ وهو شعلة من ذكاء، ومنطق من تفكير، ووفرة من علم، وسرعة من بديهة ـ فلقينا هنالك طائفة من رجالات الفضل وأصحاب الشخصيات البارزة ، نذكر منهم فى الطليعة حضرة صاحب السعادة زعيم البدو حمد باشا الباسل .

وكان هذا الرهط الكريم يتحدث ـ وكأنه فى سوق عكاظ ـ عن معنى الثقافة، وهل لكل أمة ثقافة خاصة حتى للامم الوحشية المنحطة ؟ كما كانوا يتحدثون فى الفوارق بين النبوغ والعبقرية وغير ذلك من طريف الموضوعات وقيم البحوث، وكم كان حمد باشا موفقا جد التوفيق فى كسب المعركة.

وقد كان من الممتع أن أثار صديقنا الدكتور فريد رفاعى موضوعا قديما لحمد باشا الباسل خاصا بمستقبل العالم وتوحيد الثقافات فيه، وأشار إلى كتاب قيم كان قد بعث به سعادته إلى (رابندرانات تاجور) شاعر الهند وفيلسوفها ، وقد فقد أصله العربى، ولكن من محاسن الصدف أن أبقت الأيام على ترجمته .

وقد وعدنا قراء (المعرفة) فى عددها الماضى أن نتحدث اليهم فى طرف منه راجين أن تتاح الفرص فى المستقبل القريب : إما بالعثور على الاصل، أو بالتحدث إلى الباشا فى فرصة أوسع، أو بتعريب لترجمته التى قد تعطى صورة تقريبية لهذا الموضوع القيم فى تفكيره، الفذ فى منطقه.

ولسنا بحاجة إلى أن نتحدث عن حمد باشا ، لا من حيث لونه السياسى أو عقيدته الحزبية أو ماضيه ، فهذا ما تسمو عليه مجلتنا التى وقفناها دائما على العلم ، والعلم فقط ، والتى رأينا منذ اللحظة الأولى أن نربأ بها عن السياسة ، وما فيها من لوثات ولدغات وفتن واعنات ، وإن كان من حقنا أن نجول فى ميدان السياسة أحراراً طلقاء .

وخير ما نستهل به هذه الكلمة، أن نعرب لك استهلال كتابه الممتع ، ثم نجزىء نقطه . ونلخصها لك فى إيجاز واختصار.

***

قال الباشا الجليل بعد الديباجة :

الى أستاذنا فيلسوف العصر !

«لست أظنها بجرأة أن أتقدم إليك من غير صلة تعارف سابقة، ومن غير تقدمة إلى شخصكم الكبير ، ذلك لأنى سبق ان لاقيتك بمصر ، وطالعت فيما طالعت شيئا غير قليل من آرائك الفلسفية ، وفضلا عن ذلك فان شخصيتكم الفذة شخصية عالمية ، لاتحدوها مملكة خاصة، وتحلق ذهنيتها على العالم قاطبة فينتهلون من منهلها ويهتدون بهديها.

وأظننى على حق إذا ما أهبت للتحدث الى عقليتكم الخصبة، وإذا ما التجأت الى رجاحتكم الفذة، وإذا ما اقتبست من فلسفتكم السديدة، وإذا ماتزودت بحكمتكم الرشيدة .

على انه رغما عما أحس به فى أعماق الأعماق بالصلة الروحية التى تجمعنا، ورغما عن مكانتك العالمية التى ترفرف على الآفاق، فانى لا أكتم عنك ياسيدى الجليل بأنى أشعر بالفارق العظيم والبون الشاسع الذى بيننا وأقدر شأو مكانتك .

لست أقصد بذلك البون تلك المهامه والفيافى التى بين بلادى وبلادك، ولا بعد المزار، ولا ما بين عاداتنا وعاداتك من فارق وخلاف ، ولا مابين لهجاتنا ولهجاتك، وإنما أقصد بالفارق اختلاف مناهج تفكيرينا وتباين نشأتنا العلمية، وما يحيط بكل منا من ظروف وبيئات خاصة، ولكل هذه الاعتبارات أثرها البليغ فى تكويننا وما نحن عليه من حال الآن .

إنك ياسيدى قد قرأت كثيرا، ثم إنك ـ ولاشك ـ مصلح خطير لك حنكتك وسعة تجاريبك وعلمك وسداد نظرياتك، ثم انك ياسيدى فيلسوف تملأ السمع والبصر، قد حسرت عن ساقك فى العمل لتوطيد أركان السلام العام.

وصفوة القول : إنك شخصية بارزة عن صفاتها أنحاء العالم، وجهبذ يشار اليه بالبنان، بينما أنا بدوى ساذج، فى البادية نشأت حيث لاحد لها ولا حصر ، وفى تلك الأرجاء الواسعة تأملت وفكرت، ثم فكرت، ثم تدبرت، وكان لى فى ذلك كله نعم المدرس والمثقف، ونعم المربى والمعلم.

ألست على حق إذن ، إذا ما اعترفت بما بيننا من فرق عظيم وبون شاسع؟

فلا مندوحة لى ياسيدى الجليل، وقد وقفت على حقائق التى صورت حقيقة ميلى إلى كل ماهو طبيعى وساذج، من أن أرفع إليك ماأراه منطقيا معقولا، وسهلا ميسورا، عن مستقبل العالم وعما يجب أن يكون عليه ، وربما كان من الحق على أن أقول لك إنى جربت كثيرا ، وعاشرت أناسا كثيرين ، فدرست شخصياتهم عن كثب واختلاط ، وربما كان اشتغالى بالشؤون السياسية المصرية مدعاة لصلتى بأصحاب العقول البارزة من الساسة المصريين والغربيين.

لقد سافرت ياسيدى! إلى معظم البلدان الأوروبية المتحضرة ، ثم جست خلال الكثير من بلدان آسيا وأفريقيا ، وأتيح لى أن أدرس الانسان المثقف المتحضر ، كما أتيح لى تعرف

أخلاق الأنسان الطبيعى الساذج، وخرجت من هذا كله بالحكمة العربية التى تقول: « الناس فى خير من الله وفى شر من أنفسهم »

لقد تأملت طويلا منذ امد بعيد، وفكرت كثيرا فى موضوعات معينة، وانتهى بى مطاف تفكيرى إلى ماصارحتم العالم به من طريف الآراء حين الاحتفال بكم لبلوغكم سن السبعين.

ولتسمحوا لى ياسيدى الفيلسوف! أن أتقدم إليكم بالقول بأن تلك الآراء السديدة قد شجعتنى على ان اتحدث إلى فيلسوف الشرق لما لها من شبه غير قليل بوجهة نظرى.

اتحدث إليكم لأبعث فى نفسكم المسرة والارتياح، ولأساهمكم لحظة ما تستمتعون به من متع تفكيرية فى سواع راحتكم، ولأكشف لكم عن آراء طال بها العهد وهى دفينة فى صدرى إلى أن أتيحت لها تلك الفرصة السعيدة، فرصة التحدث إليكم.

ولست أرتاب البتة فى انكم إذا مارأيتم ان هذه الآراء منطقية معقولة، وصحيحة ناضجة، انكم ستعملون على إلفات النظر إليها وتوجيه عناية اولئك الذين يضحون الشىء الكثير فى سبيل المصلحة الانسانية العامة فى سبيل السلام الانسانى »

***

وبعد أن تحدث حمد باشا بهذا الأسلوب الممتع فى تفكيره، الأخاذ فى عبارته، الصريح فى لهجته، الجميل فى تواضعه، انتقل إلى أن صوت « تاجور » أبلغ أثرا وأوسع مدى من صوته، فحضه على العمل للسلام العام، للرجوع إلى ماهو طبيعى فى الاخاء الانسانى والمحبة الانسانية، وانتقل إلى عيوب الانسانية الحاضرة التى تئن منها وتشكو: من أثرة وتعصب وحقد وكفاح، بأروع عبارة، وأجمل تعبير، فى سلاسة وحلاوة وطلاوة.

وانتقل إلى أن اختلاف الجنس لايمنع من الوحدة العالمية، وان اختلاف اللهجات واللغات يمكن التغلب عليه بنشر ألوية العلم، وتوحيد البرامج التعليمية، وقال: « إن العالم واصل لامحالة إلى ماتنشده جمعية الأمم من وحدة عالمية، لقرب المسافات، وما تطورت إليه وسائل الانتقال الحديثة تطوراً ربط الشرق بالغرب رباطا لا انفصام له، أراد الانسان او لم يرد » وتنبأ بوحدات علمية ومناطق فنية: فجماعة للأطباء يعملون لخير الانسانية عامة من غير دخل للغة والجنسية، وجماعة للهندسة وتعمير العالم تعميرا كليا لا اقليميا، وجماعة لمحاربة الأوبئة الانسانية، والأمراض العالمية تتصل بجماعة الأطباء، وأخرى للشؤون الزراعية والتجارية تنظر فى حاجات العالم ومطالبه، بقطع النظر عن مصلحة اقليم دون آخر، وخامسة للشؤون العلمية العالمية تواصل بحوثها لخير الانسانية فى هوادة واستقراء، وفى إخلاص علمى ومحبة علمية، لاتعرف للأحقاد الطائفية، ولا للخلافات الشعوبية معنى او أثرا، وسادسة للشؤون الأدبية

(البقية على الصفحة رقم ١١٧٥)